معارف الوحي: المنهجية والأداء[1]

عبد الحميد أبوسليمان[2]

الإصلاح المنهجي: جوهر القضية الفكرية في العصر الحديث

تتناول هذه الورقة القضية الفكرية من الناحية الكلية وليس من الناحية "الأكاديمية" الفنية التفصيلية، لأن القضايا الفنية التفصيلية تنبثق عن الأعمال البحثية والدراسية المتخصصة. أما في ورقة كهذه وفي إطار كالذي نحن فيه، فيحسن بنا أن نحاول الإلمام بالصورة الكبيرة لندرك حجم القضية التي نواجهها. وإذا تم ذلك سهل علينا أن نعرف ما نريد أن نفعله، وما يجب علينا القيام به.أما عندما نتعرض لتفاصيل "أكاديمية" فنية متجاهلين القضايا الكبرى، فإن الحديث يبدو كأنما هو محاولة للإبقاء على الحالة القائمة والبحث عن الحد الأعلى الذي يجب أن نتمسك به، والحد الأدنى الذي يمكن التنازل عنه، وتضيع في مثل هذه النظرة الجزئية صورة الواقع الإسلامي المؤلم، وتضيع الإشكالية الحضارية الكبرى التي تعيشها أمتنا.

لا شك في أن تاريخنا عزيز علينا، ولا ريب كذلك في أن التغيير المطلوب في واقعنا صعب. لكن التغيير والانتقال، مع الاعتزاز بالتاريخ ومحبته، وقبول معاناة التغيير، لا يكونان إلا بإدراك القضايا الأساسية والمبدئية والجوهرية. وإذا لم تتضح هذه الصورة، فإن الحديث عن التغيير والإصلاح يغدو مجرد حديث مكرر غير ذي موضوع، بل لا يعدو كونه ضربا من الهروب من الواقع وإضاعة الوقت.

والسؤال المطروح الآن هو: لماذا نبحث في القضايا الخاصة بإصلاح التعليم في العلوم الشرعية؟

---

1 قدم أصل المقال في مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات: الواقع والآفاق، الذي نظمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع جمعية البحوث والدراسات الإسلامية آب/أغسطس 1994، بعمان/الأردن.

2 مدير الجامعة الإسالمية العالمية بماليزيا، ورئيس مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية، وأول أمين عام للندوة العالمية للفكر الإسلامي، ورئيس لقسم العلوم السياسية بجامعة الملك سعود بالرياض سابقاً، دكتوراه في العلوم السياسية، جامعة بنسلفانيا (Pennsylvania).

ثمة –في رأيي– دواع ثلاثة أساسية لذلك هي:

1– الطموح والرغبة في تحقيق القدرة الفعلية على ممارسة ما نعتقد أنه حق. وهذه الرغبة وهذا الطموح ينطويان على غاية سامية وقصد ثقافي وعَقَدي مشروع. وهذا الطموح هو في الواقع اعتراف بأن ما نمارسه واقعا ليس –في جملته– ما نعتقد أنه حق ويمثل جوهرنا العقدي والحضاري.

2– السعي لإصلاح واقع المسلمين السيئ في جملته، والمقهور في صراع الأمم والحضارات، هذا الواقع الذي لا يرضى به عاقل، ويصعب القبول به والاستمرار فيه. ولذلك درج عقلاء الأمة بإصرار على البحث عن الحل في ثنايا البنية الأساسية للمجتمع وأسلوب تمثلها للقيم والغايات، وذلك استمداد بالدرجة الأولى من تراث الأمة في فهم الشريعة.

3– الرغبة في استعادة الدور القيادي للأمة، لأن خصائص هذه الأمة ورسالة الإسلام والرؤية الحضارية المنبثقة عنها، كل ذلك يعبر ضرورة عن مهمة قيادية وريادية حضارية. وبالتالي، فإن أمر الأمة لا يمكن أن يستقيم مالم تحقق تلك المهمة، وتؤدي بشكل حقيقي وفعال ما يرتبط بها من وظائف. ومن اجل أن تحقق الأمة ذلك كله لا بد من معرفة أسباب الحالة التي هي عليها في الوقت الحاضر، وبالتحديد حالها منذ الاستقلال عن الاستعمار وحتى اليوم.

وإذا حاولنا وصف هذه الحالة نلاحظ أنها في جملتها تتصف بغلبة النزعة المادية وسيطرة المنهج العلماني الغربي. ولو رجعنا إلى معاهدات الاستقلال الصوري، بدءا بمعاهدة 1936 وما تلاها من معاهدات بين الدول الاستعمارية والدول الإسلامية، لوجدنا أنها معاهدات تشترط استمرار الأنظمة العلمانية ضمن الهيمنة والنفوذ الحضاري والسياسي الغربي.

وعندما نشأت المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي فإنه كان على الدول التي تود التعامل معها، وتلافي الدخول في معارك معها ومع الدول الغربية من ورائها، أن تسير على النهج العلماني الغربي والخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يرسمها الغرب. وما يجري اليوم في كثير من دول العالم الإسلامي نجد فيها آثار هذه الخطة واضحة، ولو أدى ذلك إلى قيام أنظمة تسلطية سافرة تسفك الدماء وتحطم المجتمعات، وتهدر كل حقوق الإنسان المدنية والسياسية والاقتصادية بحجة الحفاظ عليها، وخوفا من

قيام أنظمة إسلامية قد تؤدي إلى التسلط والاستبداد. والأدهى من ذلك كله هو انبهار جل المثقفين بالأنظمة الغربية، والقناعة بحتمية الاستمرار في الطريق المسدود وتكرار التجارب الخاسرة المرة.

وهدف هذه الورقة المقدمة لهذا المؤتمر في قضايا دراسة العلوم الشرعية وتدريسها في العالم العصري إنما هو البحث في متطلبات التغيير الضروري والمطلوب في واقع الأمة وكيانها، هذا الكيان الذي يتفشى الضعف في أوصاله إذا قارنا حاله بحال الأمم الأخرى المتربصة، ومدى القوة التي تنتجها وتتمتع بها. فهذه الحالة المأساوية التي تسيطر على حياة الأمة تستوجب استنهاض الطاقة والاستعداد الكامل بين المثقفين للبحث الحر والجريء في الأسباب التي لابد من معرفتها، ومعرفة أسلوب التعامل معها، حتى تستطيع الأمة استعادة أمنها وتغيير وجهة التاريخ. ولكن يجب أن نعلم أن لتحقيق ذلك شروطا معينة لا بد منها، وإلا ذهبت الجهود هدرا، وأمست الأهداف والتطلعات نوعا من أحلام اليقظة والعبث في العمل والضياع في الوقت. ويبدو للمشاهد على تطاول الزمن وكثرة المحاولات وكأن المسلمين لا يدركون العوامل الأساسية في ضعف الأمة وإخفائها في تنزيل قيمها وتطلعاتها على واقعها، وبالتالي لا يدركون أسباب تدهور نظمها وقصور مناهج تربيتها. وذلك كله يتجلى في اضطراب الأوليات وسطحية النظر لدى كثير من الأفراد والجماعات في طول العالم الإسلامي وعرضه.

إن العقلاء من أبناء الأمة يدركون أنه لو تحقق لأصحاب النظر السطحي جل ما يتطلعون إليه، فإن ذلك لن يغير من حال الأمة شيئا ذا بال، بل ربما زاد الأمر سوءا في إطار العصر الحديث الذي يشهد تحولات هائلة بعيدة الأثر شديدة الدفع لا تكاد الأمة تقوى على مواجهتها. أنه لا يظن عاقل أن حال الأمة سوف يتغير إلى الأحسن حتى لو أخذ الناس بكل مطالبهم الشكلية في شؤون الهيئة أو في بعض أوجه العلاقات الاجتماعية والأسرية وروادع العقوبات. لقد تحقق كثير من هذه الأمور خلال العقود والقرون المتأخرة في كثير من الفئات والبلدان، ولكن ذلك لم يغير شيئا من ضعف الأمة في حلبة الصراع الحضاري بين الأمم أمام تحديات العصر في العلوم والمعارف والتقنيات، وفي مجال استغلال الموارد وفي القيادة والسطوة والريادة. بل لعل تحقيق بعض الشكليات ضمن ظروف معينة يصبح أدعى لمزيد من الضعف، بل يصبح وسيلة مشروعة يستخدمها بعض الحكام للقهر والإرهاب على غير ما تقتضيه أصول الشريعة ومقاصدها.

ومن ناحية أخرى لو نظرنا إلى الأمم المناوئة التي تتمتع بالقدرة والفاعلية في أدائها الحضاري، وترغم المسلمين على غير ما فيه مصلحتهم، لوجدنا أن من كبار علمائهم وكبار القادرين فيهم من هو بلحية وغير لحية، وتجد فيهم المحافظ المتدين والمتمرد غير الخلقي، ومع ذلك تجد في تلك المجتمعات من القدرة والقوة ما يؤهلها لتصدر مراكز القيادة والريادة. ونحن هنا لا نريد أن نقلل من أهمية بعض ما تتطلع إليه بعض الفئات الإسلامية من الصفات التي أشرنا إليها لتحقيق الكمال الإنساني، ولكن جل هذه التطلعات –أيا كانت صيغة التعامل معها في ضوء اختلافات العلماء حولها– ليست من الأمور الحاسمة لتحقيق القدرة والقيادة.

وإذا لم تكن أسباب الضعف، وسبل التغيير تقتصر على مجرد شؤون الهيئة من ثوب ولحية وما إليهما، فإنه لا بد من النظر بعمق أكبر في أغوار النفوس ومناهج التربية، ونظم المجتمع لنتبين أسباب تحقيق القدرة والمسالك الكفيلة بوضع الأمة في موقع القيادة على سبيل الهداية والقيام بالحق.

إن هناك –في تصوري– ثلاثة شروط أساسية يجب أن نبدأ بها، وننطلق منها، ونرى كيف يؤثر فهمنا للشريعة فيها، وفي تمثلها في تربية الأجيال وتنظيم المجتمعات.

وهذه الشروط الثلاثة الضرورية لأسس النهضة والإصلاح هي:

الأول: قوة البناء النفسي أو الشجاعة النفسية.

الثاني: سلامة منهج التفكير.

الثالث: نهج الخلافة الذي ينطلق من رؤية حضارية شاملة تنبع من روح الحب وقصد الخير.

1– قوة البناء النفسي والشجاعة النفسية

وهذا مبدأ مهم ترتكز عليه بقية الشروط والمبادئ، ودونه لا يتحقق الإصلاح، ولا يستقيم أمر الأمم، ولا يكون لها شأن. فمن الملاحظ أنه لم تقم في التاريخ قائمة لأمة لا يتمتع أبناؤها بالقوة والشجاعة النفسية، وأنه لم تفرض أمة نفسها على التاريخ ما لم يكن بناء أبنائها النفسي قويا وما لم تكن مناهج تربيتهم وعقليتهم

متحررة من سيطرة مشاعر الخوف ومعاني الإرهاب النفسي. وينطبق هذا على الأمة الإسلامية التي لم تفرض نفسها على التاريخ ولم تؤثر فيه أقوى ما يكون التأثير إلا بما أوتيته أجيالها الأولى المؤسسة للحضارة الإسلامية من شجاعة انتفت معها مشاعر الخوف والإرهاب النفسي. ولعل ذلك ما يشير إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا."[3] وهو المعنى ذاته الذي نستشفه من دعائه صلى الله عليه وسلم أن ينصر الله الإسلام بأحد العمرين قبل أن يسلم أحدهما، حيث أصبح عمر بن الخطاب بطل الإسلام، وأمسى عمرو بن هشام بطل الجاهلية،[4] وذلك لما كانا يتميزان به من شجاعة ورباطة جأش وحس حر. وينطبق هذا على قبائل الأتراك التي تتسم بالشجاعة حيث أعادت كرة المسلمين على أعدائهم. كما ينطبق على غير المسلمين من أمم الهكسوس والمغول وقبائل الجرمان، بل إنه ينطبق على الغرب وأممه في العصر الحديث، وذلك بعد أن زال سلطان الكنيسة وكهنوتها وإرهابها النفسي لشعوبها، فانطلقت هذه الأمم دون كوابح الخوف والإرهاب النفسي في مجال المعرفة والتنظيم والغزو بعزيمة وقوة وقدرة وسرعة فائقة.

إن نجاح الأداء الحضاري للإنسان وفعاليته يكون بقدر ما ينطوي عليه من معاني الإصلاح وسبل التقدم والقدرة، وذلك لا يتم دون عزم وشجاعة وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم:12). والكتاب رمز للحضارة والإصلاح وأساسهما، والقوة تشمل كل ألوان القدرة التي تنبع في أساسها من القوة النفسية للأمم. والصدق والمروءة والإقدام صفات أساسها الشجاعة، وإلا كانت أداة تآزر وتكاتف من أجل الشر والتدمير.

أما الأمم التي أصابها الضعف النفسي، وانطوت على الصفات النفسية للعبيد، وتمكنت بذلك فيها القابلية للذلة والاستعباد، فليس لها من مصير غير الهوان والخسف. ومن أوضح الأمثلة على ذلك بنو إسرائيل حين استعبدهم الفراعنة وتكونت لديهم نفسية العبيد، فما كان لهم أن يأخذوا المبادرة ويقتحموا المخاطر، وكان لابد لمحررهم موسى عليه السلام من أن يتيقهم في صحراء سيناء حتى يفنى جيل العبيد وينشأ جيل جديد

---

3 هذه العبارة جزء من حديث ورد بصيغ مختلفة عن أبي هريرة عند البخاري في الصحيح: باب "أحاديث الأنبياء" وباب "المناقب"، كما ورد عند مسلم في الصحيح: باب "الفضائل" وباب "الإمارة".

4 رواه الترمذي في كتاب "المناقب" عن ابن عمر، وقال: حسن صحيح غريب، ورواه أحمد في المسند.

يكون لأفراده من الشعور بالعزة والتشبت بمعاني الحرية ما يؤهلهم لأن يدخلوا الأرض وأن يكونوا سادة فيها، وليس ذلك من شيم العبيد.

2- سلامة منهج التفكير الحضاري

وسلامة منهج التفكير شرط أساسي للتقدم والتدافع الحضاري. وأي منهج سليم مثمر في التفكير لابد من أن يتسم بصفات الشمولية والتحليل والدقة والانضباط والاتساق وتحري الأسباب، وأن يكون مبنيا على وعي كامل بعنصري الزمان والمكان وإدراك لما يجره تقلبهما من أوضاع وأحوال. ولاشك في أن كل مجتمع يبلغ من النجاح التاريخي والإنجاز الحضاري بقدر ما يتوفر فيه من هذه السمات الضرورية لأي منهج علمي حضاري. وآيات القرآن الكريم الدالة على هذه المعاني صراحة وضمنا، والمؤكدة لمغزى النظر وقيمته في النفس، وفي آفاق الكون وفي ظواهر الاجتماع البشري، وحركة التاريخ كثيرة وميسرة لمن يطلبها.

إن الفكر الذي ينكفئ على نفسه، ويتمرغ في أحوال الخرافة متعلقا بالأوهام، ويقيم حول نفسه أسوارا من التواكل متلفحا بأدرية الخوف والإرهاب، فكر مهزوم عقيم منحسر. مهما أوتي أصحابه من قدرة على تزيينه، وبقطع النظر عما اشتمل عليه من دعاوى.

إن عقلية التقليد الناجمة عن العزلة الفكرية وقصور منهج الفكر عن الشمولية والانضباط والتحليل وتحري الأسباب لابد من أن تنتهي وأن تزال كل آثارها، وان تجتث الأسباب المؤدية إليها في ثقافة الأمة وفكرها، وذلك بإعادة وحدة المعرفة وانضباط المنهج وإصلاح التعليم، ليتمكن المسلم من إدراك سليم حي لآيات الكتاب وآيات الكون في ثوابت النفوس والكائنات ومتغيراتها على مر الزمان والمكان.

ولكي يستعيد الفكر الإسلامي صحته، يجب فهم الخطاب القرآني فهما صحيحا تكامليا، وإزالة غشاء الخوف والإرهاب الذي يلابسه في أذهان المسلمين، بسبب الجهل بقوانين تطور البناء النفسي والاجتماعي، وخاصة في تربية الأطفال وخطابهم. فالخطاب القرآني حيث يستخدم أسلوب العنف والقوة إنما كان يوجه للبالغين غير المؤمنين من رجال العرب الأقوياء العتاة. أما الصغار فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم،

هي أسلوب المحبة وبث روح الشجاعة والثقة بالنفس، فقد كان الأب والجدّ الذي لم يضرب طفلا قط، وكان خطابه لغلام عبد الله بن عباس ينمي فيه روح الشجاعة والإقدام، على عكس خطاب البالغين الشجعان الجبابرة الذين اكتمل بناؤهم النفسي والذين يراد حملهم على مواجهة مسؤولياتهم الاجتماعية والحضارية، وتحري الأسباب في تصرفاتهم، وحساب العواقب والنتائج والمآلات التي تترتب على تلك التصرفات.

إن تفوق منهج التفكيك في سياق الظروف الخاصة بكل عصر، وما تحتوي عليه من إمكانيات، وما تثيره من حاجات، وما تطرحه من تحديات ومتغيرات، أمر ضروري ونسبي في الوقت نفسه، ولا يتحقق نجاح ولا تكون الغلبة لأمة من الأمم أو حضارة من الحضارات إلا بقدر توفر هذا الشرط في منهج فكرها ودليل فعلها.

3- نهج الخلافة الذي ينطلق من رؤية حضارية تنبع من روح الحب وقصد الخير للخلق كافة

إذا كانت القوة النفسية وتفوق النهج الفكري شرطين ضرورين لدفع الحركة وتحقيق النجاح والغلبة والقيادة في تدافع الأمم والحضارات، فإن سلامة الرؤية الحضارية وإيجابيتها أمر ضروري لكي تتجه حركة الأمة وجهة الإصلاح، ولكي يتحقق لها النجاح الحضاري، وتنضوي الأمم تحت رايتها واستمرار تفوقها في مجال الأداء الحضاري.

إن الغلبة والقهر والسيطرة يكفي لتحقيقها توفر الشجاعة، وتفوق منهج التفكير لتحصيل وسائل القوة، ولكن ذلك يبقى قاصرا عن الوفاء بحاجات الأداء الحضاري الإنساني واسمراريته. فالقوة والغلبة وحدهما من سمات حركات الشعوب البربرية وعصابات الإجرام المنظمة، ولكن هذا اللون من القوة والقدرة الفكرية مصيره الاضمحلال لأنه تنقصه الرؤية الحضارية الإنسانية، فلا تقوى على الثبات في معترك الرؤى الحضارية، بل سرعان ما تتوارى وتختفي.

وهكذا كان مصير الشعوب البربرية القوية التي عرفها التاريخ، فلم تنهض بأمر ذي شأن في سياق المسيرة الحضارية للإنسانية. وما يميز الرؤية الحضارية عن الروح البربرية والإجرامية أنها تنطلق من منظور شمولي إيجابي، يهتم بحاجات البشر، ويحرص على جلب الخير لهم، ويسعى لما فيه مصلحتهم، ولذلك فإنه بقدر ما يتحقق

للأمم والحضارات من شمولية الرؤية الحضارية التي تنبع من روح المحبة للخليقة وقصد الخير لها، يكون نصيب تلك الأمم والحضارات من الاستمرار والبقاء. وما نراه اليوم من مقاومة شعوب كثيرة للحضارة الغربية إنما هو تعبير عن قصور هذه الحضارة عن أن تشمل بعنايتها ورعايتها الصادقة الشعوب الأخرى، وذلك لغلبة الروح العنصرية والمادية الفردية عليها. لذلك ترى هذه الحضارة تسعى لتوسيع دائرة الشمول في مفاهيمها وأنظمتها جاهدة لإضفاء صبغة العامية على مبادئها وأساليبها. وهي في الوقت نفسه تسعى لتشويه الحضارات المغايرة لها بما فيها من أساليب حياة وأنماط فكر ومنظومات اعتقاد، وهو ما يعرف بالغزو الثقافي. والغزو الثقافي والحضاري يختلف –في حقيقته– عن الاحتواء والانتشار الثقافي والحضاري فالأول هدفه السيطرة والاستعلاء، والثاني منطلقه وغايته المحبة وقصد الخير.

ولعل جزءا لا يستهان به من اضطراب الحياة الاجتماعية الذي بدأ في الغرب ومازالت آثاره السلبية تتوسع يرجع إلى تدمير أهم مؤسسات المحبة والرعاية في المجتمع، ألا وهي الأسرة. وكلما كان تدمير مؤسسة الأسرة أكبر كانت دائرة الخلل الاجتماعي أوسع.

وأية ثقافة أو حضارة يشيع فيها الخوف والإرهاب النفسي والفكري تجف فيها منابع المحبة، ويضمر قصد الخير للآخرين، ويتسم أفراد مجتمعها بالسلبية والفردية شأن كل خائف مترقب ليس له من أمر البناء والعطاء والنماء قصد أو دافع. إن الحب هو مزرعة الشجاعة، إن الخوف والرهبة هي مقبرة الشجاعة. ويصدق هذا بشكل واضح على منهجية تربية الصغار، أهو قائم على غرس معاني الحب والثقة بالنفس، أم هو مبني على زرع مشاعر الخوف والرهبة وضعف الثقة بالنفس.

إن الحرية والمساواة في حقوق المواطنة ضمن المبادىء والحقوق الأساسية للإنسان أمر ضروري لتوفير مشاعر الأمن وتوثيق روابط الإخاء بين الناس. إن على الثقافة الإسلامية أن تنقب في حناياها وتنقي مناهج فكرها من كل ما ينال هذه المفاهيم، ويقضي على مصادر الطاقة النفسية للأمة، ويفرغ رؤيتها الحضارية من محتواها ورسالتها الإنسانية. لقد كانت طاقة انتشار الحضارة الإسلامية وقوتها متناسبة مع ما كان يسري فيها من حقيقة الشمولية، وقدرة الأداء، وإيجابية التوجه، عبيدا عن معاني الإرهاب النفسي واضمحلال معاني الحرية، وسريان مفاهيم القهر و القسر في تربية النشء، وحقوق المواطنة و في إدارة شؤون الأمة.

إن الانفصام التاريخي بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية في كيان الأمة الإسلامية أدى إلى تدهور الفكر وعجز السياسة، وبالتالي اللجوء إلى مناهج الإرهاب النفسي والفكري والاستبداد السياسي، ووظفت النصوص عن غير قصد بنظرة جزئية ومنهج فكري غير منضبط على غير ما تقضي به المبادىء الأساسية للشريعة.

لقد قدّمت عددا من الأمثلة[5] في كتابيّ **(النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية)** و**(أزمة العقل المسلم)** لتوضيح أثر الخلل في المنهج الذي أدى إلى خلل الفكر وضموره وتجاوزاته، الأمر الذي نتج عنه مع تباعد الزمن وازدياد العجز قيام ثقافة إرهاب للصغار والكبار قضت على معاني الشجاعة والقوة النفسية والأدبية، وبالتالي جرى إفراغ الرؤية الحضارية الإسلامية من حقيقة محتواها في التوحيد والخلافة.

وباختصار أدى الفصام إلى العزلة الفكرية، وأدت العزلة الفكرية إلى خلل المنهج، وأدى خلل المنهج إلى تدمير القوة النفسية وإلى فقدان الرؤية الحضارية وتدهور الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية.

إنني أرجو ألا تكون لدينا في البحث العلمي والتأمل الفكري حساسيات، فقضيتنا ليست دفاعا أو هجوما. إننا أمام وضع حضاري إسلامي وعالمي يستدعي التغيير، ولا بد لنا من الشجاعة الكاملة لمواجهة قضاياه. ومع ذلك فالخطأ يرد، وما ليس صوابا يعدل، أما الأمر غير المقبول فهو التراجع والخوف من أن نحدّث أنفسنا بما يجيش فيها ونراه في واقعنا. لا بد إذا من الجرأة في التعبير عن آرائنا، ولابد من الاستماع إلى آراء الآخرين. فلكل إنسان وعضو في المجتمع الحق في التعبير البناء، وبدون ذلك لا تكون هناك جماعة إنسانية بل جماعة من العبيد، أو قطيع من الحيوانات، لأن الجماعة الإنسانية حقا تتكون من أعضاء أحرار لا من سادة وعبيد.

إن الذي لا يدرس ولا يعلم إلا ما ورثه من العلم والكتب لا يستطيع أن يكون له رأي ولا يستطيع أن يقدم جديدا. إن فهم القرآن والسنة لا يكون إلا بفهم الطبائع وفهم الواقع، وحتى تفهم دلالات الكتاب والسنة

---

5 عبدالحميد أحمد أبوسليمان:

أ- النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية، الرياض 1993/1423، ص178-227.

ب- أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – الولايات المتحدة الأمريكية 1991/1412، ص73-97.

بشكل حي وفعال لابد من أن نفهم الموضوع الذي يتعلق بالنصوص بثوابت فطرته ومتغيراته، وفي الوقت نفسه لا يمكنك أن ترشّد الحياة ونظمها وأنظمتها ومتغيراتها دون هداية الكتاب والسنة ومقاصدهما الكلية.

لذلك فإن المطلوب من الناحية المنهجية هو أولا: تغيير طريقة التعليم التي تسود المدارس الشرعية. إنه لا يمكن لإنسان يقتصر على قراءة كتب التراث وفكره أن يكون له رأي واجتهاد. كما لا يمكن لإنسان لا يهتدي بهدي الكتاب والسنة أن يكون له رؤية شمولية إسلامية قيمة، لذلك لا بد من أن نصل هدي الكتاب والسنة ومقاصدهما إلى كل دارس وعامل في أي شأن من شؤون الحياة، فلا يقتصر علم الكتاب والسنة على طلبة العلوم الخادمة للكتاب والسنة مما يتم تدريسه اليوم في الكليات الشرعية، بل لا بد أن تصل فحوى هداية الكتاب والسنة إلى كل الدارسين في كل الحقول حيث يتم توليد كل ألوان الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي وسواه. إن مثل هذا الفكر التوحيدي في مختلف مجالات الحياة هو الذي يوفر المادة اللازمة لعلم الأنظمة والقوانين (الفقه)، وهذا العلم هو الذي يبلور هذا الفكر في أنظمة وقوانين وضوابط اجتماعية إسلامية في مختلف مجالات الحياة والأنظمة.

إن الفقه لا يلد الفكر ولكن الفكر هو الذي يمد الفقه بمادته وفحواه، وبهذا الأسلوب تستعيد الأمة ويستعيد التعليم ويستعيد الفكر الوحدة والعافية، فتبنى الحياة وأنظمتها على أساس منهج شمولي تحليلي منضبط مبني على قاعدة العقيدة والرؤية الحضارية الإسلامية الشمولية. ومن ثم فإن الفقه الذي ينشأ عن هذا الفكر الشمولي الموحد هو فقه أنظمة الحياة بصورة متساندة متكاملة، وليس فقه أفراد أفذاذ يكاد ينعدم فيه بعد الجماعة وتكامل الأنظمة.

تنقية المفاهيم الإسلامية

من المهم في إعادة النظر في أسلوب دراسة علوم الوحي الإسلامي ومنهج تدريسها وتنقيتها من شطط القرون المتأخرة، حيث أصبح التوحيد قضية لاهوتية مجردة وأصبحت العبودية استعبادا وانسحابا من الحياة لا تحررا وفاعلية، وأصبحت التقوى لا يقظة وصحوة ودليلا لسلامة الطريق، وإنما خوفا وهلعا ينزوي بصاحبه إلى

العزلة والعجز. ويمكن أن نمثل لذلك كله بالفرق بين الشجاع "التقي" متسلق الجبال، فأي خطأ وتهور منه يعني الهلاك، والتوقي والحذر هنا هو تقوى الله. أما الهلوع فهو الذي يخشى العوالي ولو كانت أمتارا قليلة لا يخشى في الحقيقة منها شيء، ومثل هذا الشخص ليس تقيا وليس هناك ما يتقيه، إنما هو امرؤ مريض يحتاج إلى العلاج والتشجيع، لا التخويف والتهويل باسم التقوى وطلب السلامة.

إن مفاهيم التوحيد والخلافة والعبودية والتقوى يجب أن تكون مصدر عزة وقوة ودفع إلى العمل وبذل الجهد والصبر والمثابرة على أداء وظائف البناء والإعمار والخلافة تحقيقا للذات وراحة للنفس وترقية للوجدان.

إن من أهم المشكلات في دراسة معارف الوحي الإسلامي وتدريسها للنشء أنها تخلوا من فهم عميق للنفس الإنسانية وخاصة الطفل، فذلك له أهمية قصوى في نجاعة أسلوب التعليم والتربية والعرض بحيث تكون نتيجة ذلك –بغض النظر عن النوايا– إيجابية لا سلبية. إن أسلوب تربية الصغار وتنشئتهم على مفاهيم العقيدة الإسلامية ومقاصدها يختلف عن أسلوب عرضها وتمثلها لدى كبار البالغين، فالصغير إذا أنت هددته أثرت مشاعر الرهبة والخوف في نفسه، ومثل هذا الأسلوب يقتل فيه كل معاني الإيجابية والإقدام والعمل، ويثير فيه معاني العزلة والسلبية طلبا للسلامة والنجاة. وهذا بعكس نفسية البالغ الذي اكتمل تكوينه النفسي واستقر، فإن تنبيهه إلى المخاطر لا يمنعه من الإقدام، ولكن يسلحه بالحذر واتقاء الأخطار وحساب العواقب. إن على التعليم الإسلامي أن يتوخى في عرض قضايا الوحي وتوجيهاته في شؤون العقيدة، وما ينبني عليها واقع الحياة من مقاصد الشريعة وأنظمتها، أسلوبا يتسم بالحكمة والمعرفة بمقتضى كل حال.

إن عجز منهج المعرفة الإسلامية كما هو اليوم –في ظني– السبب في عجز فكر الأمة عن إصلاح حالها والتصدي بنجاعة للتحديات التي تواجهها، حيث لا بد من قياس الأداء على النتائج لا الدعاوى والأحلام.

إن الأسلوب السائد في عرض العقائد الإسلامية وتفهمها من أهم الأسباب حالة السلبية والضعف النفسي لدى أبناء الأمة. وما لم يتم إصلاح فهم العقائد لن يستقيم بناء الأمة النفسي أبدا. إن العقائد الإسلامية وفهمها يجب أن يصفَّيا من الإسرائيليات والأساطير والخرافات بحيث يجب أن لا يقبل في تأسيس العقائد وأخبار الغيب إلا القرآن الكريم والسنة المتواترة، لأن الغيبيات لا يمكن نقد متنها عقلا ولا قياسا على أحوال الناس. وما أراده الله سبحانه وتعالى رسالة للإنسان لابد أن يكون رسالة لا يحتمل في أمرها شك أبدا، وما

يحتمل الشك ولا يمكن الثقة الكاملة في صحته لا يمكن أن يكون رسالة غيب من عند الله. ومهما أردنا أن نحسن الظن بآحاد الرواة فهم بشر يمكن أن يقع الخطأ والتحريف فينقلهم بحسن قصد أو بسوء قصد، كما يمكن أن يقع نحن في خطأ تقويم الرجال خاصة بعد مضى القرون المتطاولة على مصادر الرواية الأولى وعليه فما ليس قرآنا ولا حديثا صحيحا متواترا، فإنه لا يقبل ابتداء في أمر العقائد، بغض النظر عن الكتب الرواية التي ورد فيها، وبقطع النظر عمن رواه.

ومن ناحية أخرى فإن تفشي الفردية، وضعف الروح الجماعية، وتردي الوعي بكيان الأمة، وعدم السعي للحفاظ عليه، يعود في ظني في جزء كبير منه إلى دليل التربية لدى المسلم، وهو دليل يغيب فيه الجانب الجماعي. وأعني بذلك كتاب الفقه التقليدي الذي يخاطب الفرد المسلم، ويعني بقضاياه في الشعائر والمعاملات بصورة يغيب فيها البعد الجماعي وما يرتبط به من سياسات ومؤسسات وأنظمة.

إن كتاب الفقه –وقد استقل العلماء من خلاله بتوجيه حياة الفرد وتركوا الشؤون العامة للجماعة ومؤسساتها للسلاطين– إنما يوجه الخطاب إلى الفرد ويربيه فردا منذ أن يولد، وكيف يسمَّى إلى أن يتوفاه ملك الموت، وكيف يدفن مرورا بينهما بشؤون عباداته ومعاملاته.

إن هذا المنهج –في رأيي– هو الذي يفسر قدرا كبيرا من التفكك في كيان الأمة وما أصابها من ضعف وتفتت وتنازع على الرغم من أن الإسلام —كتابا وسنة– والعقل يأمران بغير ذلك. وفي حين يتماسك كيان غيرنا من الأمم على الرغم من كبر حجمها، وكثرة مشاكلها كالصين والهند، وبينما يتوجه سوانا عقلا إلى الوحدة في قارة أوروبية وأمريكية، نجد أننا نحن المسلمين نزداد تفككا حتى لا يكاد يوجد بلد مسلم لا يقبل كيانه الانقسام إلى أكثر من جزء. وتتوالد في الأمة كيانات متعددة لا تقبل أن تأتلف وتتوحد في كيان واحد. ولا تفسير لذلك بعوامل العرق أو اللغة أو اللون أو المناخ، فهي كلها شعوب مسلمة ذات ثقافة مشتركة تمد أفرادها ببنائهم النفسي ومنهج تفكيرهم. وعليه فإن أمراض هذه الثقافة المشتركة لا بد أن تكون هي السبب في أوضاع الفرقة والتفكك التي طبعت حياة هذه الشعوب.

إن أمر الأمة وشعوبها لن يستقيم مالم يرشد فكرها، ومالم يستقم المنهج الذي يولد هذا الفكر، وما لم يستقم بالتالي ما ينبني على هذا المنهج والفكر من ثقافات وأساليب تربوية وأنظمة اجتماعية. فكل الاختلافات التي

تشقى حياة الأمة يسببُّها المنهج العقلي المختل والفهم المشوه للدين والعقائد، وما يترتب على ذلك من مناهج في تنشئة أجيال الأمة وهذه المناهج التي تؤدي إلى الجمود على الأنظمة والمعاملات الموروثة المألوفة دون اعتبار لزماننا والتحديات التي تواجهنا. وكل ذلك يعكس فكر الخصام والعزلة والمواجهة بين العلماء والسلاطين، وبين الدين والعقائد من ناحية والأنظمة الاجتماعية والسياسات العامة من ناحية ثانية، وبين الفكر والممارسة.

إنني إذ أتوجه بالحديث إلى العلماء والمثقفين، أدعو إلى أن نغوص معا في أعماق تراثنا وفكرنا ومناهجنا فنحفظ الثمين منها ونرفض الغث، ونستخلص العبرة منها. وهذا أمر يحتاج إلى شجاعة كبيرة نواجه بها ما اعتادته النفوس وما أضفته أخيال الضعف والتقليد المتأخرة على التراث من قداسة. وقد استخدمت ألوان من التخويف والإرهاب تلهب بسياطها العقول والنفوس حتى تفقد العقول قدرتها على التفكير والتقدير الحر، وحرفت معاني القيم حتى أصبح يرى في نقائص الخوف والذل والخضوع والنفاق فضائل من الأدب والتقوى والتواضع والحكمة.

إن الاجتهاد الحقيقي هو اجتهاد جماعي وليس اجتهادا فرديا. إن الاجتهاد ثمرة عقل يستند إلى فكر منهجي مبدع في المجنمع والأمة، ويشمل ذلك مجموع أعمال الدارسين والباحثين والعاملين والعلماء ومؤسساتهم المتسمة بالحيوية والجدة ومتابعة المتغيرات في مختلف المجالات.

إن فكر الأمة المنهجي في مختلف المجالات هو الأرضية الراسخة الحقيقية للاجتهاد الذي تقوم عليه جموع الباحثين والعلماء والعاملين أفرادا ومؤسسات، بصورة تجعل هذا الفكر وما ينبثق عنه من أنظمة اجتماعية يستجيب بشكل عملي وفعال لحاجات الناس المتطورة وقدراتهم المتنامية، ويتفاعل مع متغيرات الزمان المتلاحقة، صادرا في كل ذلك عن قيم الأمة وقاعدتها العقدية ورؤيتها الحضارية.

في المعالم الأساسية للمنهجية العلمية للفكر الإسلامي

المنهجية الإسلامية هي منهجية علمية حتما، وأي تنظير أو تطبيق ينتقص علميتها أو يتجاوزها كلا أو جزءا لا ينتقص العلمية ولا يتجاوزها فحسب، ولكنه ينتقص الإسلامية ويتجاوزها.

فالوحي بوصفه منطلقا للمعرفة يحتم التكامل والتطابق مع جوهر الكون والطبيعة والإنسان، ويقوم بتوجيه تلك المعارف. وأي تعارض أو تناقض لابد أن يكون عجزا في الأداة، سواء كان ذلك في أدوات فهم معارف الوحي والاستنباط منها، أو في أدوات تحصيل معارف الكون والطبيعة والإنسان.

فمعارف الوحي تتكامل مع معارف الكون والطبيعة والإنسان خاصة فيما يتعلق بالغيب والغايات الكلية للوجود الإنساني والمادي للكون وفي الغايات الخلقية الكلية للسلوك الإنساني.

ومعارف الوحي تتطابق مع معارف الكون والطبيعة والإنسان في كشف كنه هذه المعا رف وتيسرها لغاياتها الكلية في قصد الخير ونشر العمران، وحتمية التكامل والتوافق وجهد التطابق يحتم توجيه معارف الكون باتجاه كليات الوحي الخيرة.

وأية منهجية وأية أداة أو أسلوب للفهم والكشف والتطبيق العلمي لا تتوفر فيها هذه الشروط لا يقبلها الحس المسلم ولا يسلم بها.

الحس المسلم لا يمكن أن يقبل ما استقر في يقينه أنه لا يدعو إلى الخير ولا يوجه إليه ولا ينشر العمران ولا يستجيب لحاجات الإنسان المادية والروحية.

إن الجديد اليوم هو أن معارف الكون والطبيعة والإنسان قد اتسعت آفاقها وتطورت أدواتها لتفتح أمام البشر آفاقا وتكسبهم زخما لم تعرفه البشرية من قبل، حتى كاد هذا التغير الكمي أن يصبح تغيرا نوعيا في كثير من المجالات التطبيقية، وأصبح العبء اليوم عل كاهل الدارسين لمعارف الوحي ومدى قدرتهم على مجاراة تطور المعارف الإنسانية وزخمها، لكي يتم التكامل والتطابق معها، وتستعيد القدرة على توجيهها نحو مقاصدها الكلية الخيرة.

إن زخم المعارف في الطبيعة والإنسان من جانب، واختراع أدوات جديدة كثيرة في البحث العلمي والمعرفي من جانب آخر، يجب أن يتم استخدامهما وتطويعهما في خدمة منهجية البحث العلمي في معارف الوحي والنظر في التعامل مع مصادرها واستنباط المعارف منها.

لقد توفر للإنسان اليوم من أدوات البحث العلمي ومن المعارف الكونية، ما يستطيع أن يرى به كثيرا من الأمور التي لم يكن من اليسير أو الممكن للعلماء في العصور الماضية أن يروها أو يدركوها.

فتوثيق المصادر وتحريرها مما ضل عالقا بها من الإسرائيليات والأساطير والخزعبلات أمر يمكن اليوم التعامل معه بوسائل مثل الحاسب الآلي بقدرة أكبر سواء كان ذلك في مجال دراسة السند أو في مجال نقد المتن.

إن زخم المعارف الكونية وما كشفته من أسرار في الكون والإنسان يجب أن تشحذ القدرة على نقد المتن، وأن تمكن للقرآن الكريم مرجعيته وسيطرته في مجال معارف الوحي بحيث يرد إليه بوعي وفهم شمولي كل معارف الوحي ومصادرها سواء كان سنة نبوية أو تراثا.

لم يعد من الممكن التعلق بكل أثر إن كان من الآحاد، أو من الضعيف خاصة، في المهم من أمور العقيدة والغيب، مثل قصة المهدي، ونزول عيسى في آخر الزمان. فما كان غيبا أو عقيدة لا يكون إلا متواترا من قرآن أو سنة

وما شاب الآثار من الإسرائيليات والخزعبلات والأساطير التي لا تدل على خير، وإنما تروج لفكر التواكل والسحر، وتنشر في الناس مفاسد الضعف والخوف والإرهاب النفسين تقتل في النفوس القدرة على دراسة الكون والطبائع وتوليد الأقوات سد الحاجات وتطوير الأدوات العلمية والعقلية لتنقية معارف الوحي منها ومن آثارها.

ويجب في فهم متون الآثار والتراث و معارف الوحي إدراك عامل الزمان والمكان على أفضل ما تتوصل إليه في كل عصر آفاق معرفية الإنسانية وحاجاتها حتى تتمكن معارف الوحي من توجيهها وأن تحسن ذلك التوجيه.

إن من المهم لأي تطور في منهجية الفكر الإسلامي التعامل مع الكليات والبعد عن تيه الجزئيات. ويجب أن تحكم الكليات علاقات الجزئيات وليس العكس، بحيث تضيع الرؤية الكلية فيما يتعلق بالجزئيات من نوائب واعتبارات زمانية ومكانية تجعل أحيانا من الصعوبة تبين مسار القضايا ضمن تشعباتها وعلاقاتها بالكليات.

من المهم إدراك كليات المقاصد وما تحقق به، خاصة في عصر الأنظمة والسياسات التي تحقق وتتكامل في شؤون التربية والتعليم والسياسة والاقتصاد والإعلام، بحيث لا نقف عند حدود الأحكام وحدها بل لا بد من إدراك علاقاتها بالمقاصد، وبأداء الأنظمة والسياسات العامة في تحقيقها. إن من المهم إلا تقف منهجية الفكر الإسلامي عند الجزئيات والشكليات، وخاصة إن عوقت تحقيق المقاصد، أو قصرت عنها بما قد يفوّت مصلحة أكبر أو يدرأ مفسدة أهم.

إن هناك كليات ومنطلقات أساسية إسلامية يرتكز إليها الإسلام، وتحدد طبيعته، وذلك كمبدأ التوحيد، ومفهوم الخلافة، ومبادئ العدل والمساواة، وقصد الإصلاح والخير، وهناك كليات لقضايا جزئية في العبادات، مثل حب الله واستمرار الصلة به، واستحضار خشيته في مقاصد الأفعال والنهي عن المنكر والفساد، والتيسير، وتوطيد أواصر النظام العام والجماعة، أو في المعاملات كقصد العدل، وتحصيل الحاجات وتيسيرها، والمحافظة على الحقوق والأموال، وعدم الوقوع في الشجار والاختلاف والتباغض، وينطبق هذا على كليات أجزاء التربية والتعليم، والسياسة والإعلام وسواها.

وإذا كانت هذه الكليات أسسا ثابتة تحدد ملامح المنطق الإسلامي، إلا أن أسلوب عرض هذه الكليات وعلاقتها بالجزئيات والأنظمة يعتمد على ممارسات العصور ومعارف الإنسان وقضاياها التطبيقية، حيث إن كل هذا ينعكس على فهم هذه الكليات وعلاقاتها بالجزئيات والتطبيقات وطرق عرضها، وما يكون عليه التركيز منها مراعاة لحال العصور وقضاياها، حتى لا يكون هذا العرض حديثا في فراغ لا يتوجه إلى الأمم والعصور بحسب حالها وحاجاتها.

إن المنهجية الإسلامية هي منهجية لها ملامحها ومنطلقاتها الواضحة المحددة، وهي في الوقت نفسه منهجية حيوية يستجيب منهج عرضها للمتغيرات، مثلما يستجيب لتحقيق التكامل والتطابق وفاعلية التوجيه، حتى تحقق للبشرية أفضل التصورات التطلعات ضمن معطيات العصور وأفاق معارفها وقدراتها.

ومن المهم أيضا في دراسة نصوص الوحي أن نميز بأسلوب علمي بين ما هو تعبير عن حقائق الفطرة وقوانينها الكونية سننا وأقدارا، وما هو قضاء، أمرا ونهيا، ومقاصد، توجيها وإرشادا للإنسان، فردا ومجتمعا، وبما يعين على حسن التعامل مع الفطرة وتحقيق أهداف الوجود الإنساني على الأرض ضمن كليات الوحي وفي إطار فلسفته.

إن الخلط بين ما هو فطرة وما هو توجيه يخلط قضايا البحث العلمي ويضعف فاعليته، وقد يقوده إلى تصورات وخطط خاطئة.
أما وسائل البحث العلمي التي تستند إلى حس الإنسان وعقله وإدراكه السليم فكلها وسائل يقبلها الفكر الإسلامي، ويتطلع إلى استخدامها وتطويرها، للوصول إلى آفاق أعلى وأبعد من المعرفة الإسلامية في إدراك كليات الوحي وتوجيهه، وفي توسيع آفاق المعرفة الإنسانية الكونية.

في ضوء ما سبق يجب على الفئات العاملة في كل فرع من فروع الحياة واهتمامها أن تطور فروضها العلمية، ووسائل امتحانها وفحصها وتمحيصها ونقدها، حسب طبيعة كل مجال، وما وصلت إليه المعرفة الإنسانية من آفاق وقدرات.

توضيحات منهجية لمصطلحات الفقه والقانون والتبويب

هذه هي الأرضية اللازمة للاجتهاد والإبداع العلمي والفكري كيما يستجيب الفكر والنظام الاجتماعي لحاجات الناس وقيمهم ومثالياتهم.

إن الفقه في ثقافتنا الإسلامية هو الفكر القانوني الإسلامي الذي يبحث في القضايا الخاصة بأحكام العبادات وتنظيم المعاملات والعلاقات بين الأفراد. والفقه بهذا المعنى فكر قانوني، وهو لذلك يختلف عن القانون. فالقانون هو القواعد الملزمة للإنسان في سلوكه الاجتماعي، والمذاهب الفقهية الإسلامية التاريخية تعد في بعض الحالات قوانين أيضا، بسبب ما جرى عليه العرف والعادة في قطاعات من الأمة أو أجزاء من العالم الإسلامي، من التزام بمذهب فقهي دون آخر، فالمذهب الشافعي في الأحوال الشخصية على سبيل

المثال يعد قانونا للأحوال الشخصية في جنوب شرق آسيا، وهو في هذه الحالة يعد قانونا عرفيا، حيث تعارف الناس تاريخيا على الالتزام بقواعده دون غيره من المذاهب.

ولا يغير من هذا أن أساس المذهب الشافعي –مثله مثل غيره من المذاهب الإسلامية– هو القرآن والسنة فهذان المصدران هما أساس المذاهب الفقهية الإسلامية كافة. والمذاهب الإسلامية بهذا المفهوم قوانين عرفية مصدرها القرآن والسنة. بينما، نجد على سبيل المثال أن أكبر القوانين الدولية، التي هي في حقيقتها قوانين عرفية، مصدرها المعاهدات الدولية. فمصدر القانون غير الفقه، وتبويب الأحكام أمر آخر يتساوى فيه الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية، فالتبويب وسيلة تسهيل للعمل والدراسة، تتساوى فيه القوانين الإسلامية والقوانين الوضعية كما يتساوى فيه عمل الفقهاء، مسلمين وغير مسلمين، بغض النظر عما إذا كانت قوانين عرفية أو قوانين صادرة عن المجالس التشريعية.

فالفقه فكر، وبهذا الاعتبار فهو مصدر من مصادر القانون. أما القانون –إسلاميا أو غير إسلامي– فهو القواعد الملزمة. وتتعدد مصادر القانون، ويتم الالتزام به عرفا وعادة أو على أساس صدوره عن مجالس تشريعية، وقد يكون مصدر القانون دينيا تأسيسيا على كتب ومبادئ دينية، وقد يكون مصدره عقليا منفعيا استجابة لحاجات المجتمع وإراداته وطموحاته.

وينبغي معرفة هذه الاختلافات وإدراك وضع كل مجال وأسلوب دراسته، كما أنه لا بد من إدراك مدلول كل مصطلح ومفهوم وطريقة استخدامه، وهذا يحتم أن تكون الدراسات الفقهية والقانونية دراسات حية "ديناميكية" للأحكام والقوانين والنظم، تأخذ في الحسبان الأوضاع التاريخية والحاجات الاجتماعية التي وضعت هذه الأحكام والقوانين والنظم استجابة لها. وبذلك فستكون هذه الدراسات مبنية على فكر منهجي، وبحث علمي مبدع يلاحق المتغيرات، ويبتكر البدائل استجابة لحاجات المجتمع واستنادا إلى قاعدته العقدية.

الاجتهاد عمل فكري منهجي يستند إلى رؤية كلية

إن الاجتهاد الذي يؤثر في مسيرة الأمم، وخاصة في هذا العصر الذي تعقدت فيه قضايا الحياة ونظمها وتسارعت حركة التغيير فيها، إنما هو في حقيقته نتاج لفكر الأمة بمختلف قطاعاتها الفكرية، وما يقوم فيها من دراسات ومؤسسات وأبحاث منهجية، والمجتهد بهذا المفهوم، فرد يسهم بفكره في الحركة الفكرية العامة للأمة مستندا إلى منهجية علمية سليمة، تنبثق عن الأصول الفكرية للأمة وثقافتها وقيمها وإدراك أحوالها ومشكلاتها، وهذا يجعل المجتهد قادرا على العطاء الفكري المبدع، ضمن حركة تاريخية لا فلتة عشوائية. وأية قيمة فكرية لا تستند إلى فكر حي للأمة لن يكون لها أثر باق يغير من مسيرة الأمة الحضارية.

إن الاجتهاد بهذا المفهوم هو في جوهره عمل فكري منهجي، وجهد علمي متواصل، والأمة الحية ذات القوة المتطورة هي التي تجعل المنهجية الاجتهادية مدرسة وأسلوبا علميا عاما، يعمل به ومن خلال شرائح المتعلمين والباحثين والعاملين كافة. والمجتهد، بهذا المفهوم، جزء من حركة الأمة يجسد فكرها الحي ومنهجيتها العلمية، ويستند إليها. إن الأمم المتقدمة السائدة هي التي يكون فيها الاجتهاد مدرسة وظاهرة منهجية عامة. أما أن كان الاجتهاد وليد الصدفة، أو نتيجة لعمل فردي عفوي، حين يقع بعض الأفراد دون وعي على استخدام المنهجية العلمية المبنية على القيم استجابة للحاجات المتجددة المتطورة، فإن ذلك النوع من الاجتهاد أشبه بالفقاعة التي لا يتلوها ما يقويها ويعززها فتبقى عقيما.

إن ظهور بعض العقول النيرة وسط ظلام الجمود والركود والتقليد ليس أكثر من ظاهرة فردية اهتدت دون وعي إلى المنهجية العلمية. وذلك ما يجعل العطاء مثل هؤلاء ينقطع، ونور فكرهم ينطفئ بذهابهم، فيستمر حال المجتمع في جمود وركود، فلا يستجيب للحاجات المستجدة والتطلعات المتوسعة المتصاعدة. ولذلك فان الفكر الاجتهادي لا يتحقق، ولا يستمر عطاؤه إلا بالعمل الجماعي المنهجي، وليس اعتمادا على بعض الظواهر الفردية المعزولة.

فالفقيه والمقنن في مجال الاقتصاد والسياسة والتربية وسواها ليس هو الذي يولد الفكر الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي وإنما يتمثل جوهر عمله في استعاب ذلك كله لاستخلاص القواعد الفقهية والقوانين التشريعية التي تنظمه وتعبر عنه.

فالاجتهاد في جوهره إذا منهجية علمية، وفكر أمة، وجهود عقول نيرة تستوعب تلك المنهجية وتطورها، وليس فلتات تاريخية أو أدوات معرفية تطبق بصورة آلية. فمثل هذه الفلتات وإن مثلت ومضات مظيئة إلا أنها لا تغير أحوال الأمم ووجهة التاريخ.

وحدة أصول الدين وأصول الفقه هي وحدة العقيدة وتنظيم المجتمع

في تاريخ الأمة –حين استقرت أنظمتها الاجتماعية بما فيها الأنظمة الاقتصادية والسياسية التي تسند إلى مزيج من القيم الإسلامية والقبلية– أمكن فصل العقائد عن الأنظمة والمعاملات دون إحساس في البداية بخطورة آثار هذا الفصل، الذي أصبحت بمقتضاه أصول الدين تهتم بالأبحاث النظرية في العقيدة، متابعة في ذلك للتقاليد الفكرية للأمم والديانات المندثرة التي كانت منتشرة في البقاع التي انتشر فيها الإسلام.

وبذلك أصبحت أصول الفقه منهجية ضيقة تهتم بصورة جزئية بالشعائر والمعاملات، وترتكز في جوهر أدائها إلى التقليد والقياس الجزئي الذي لا يصح ولا يثمر إلا إذا بقيت الصورة الكلية ثابتة لا تتغير. ولذلك لما تغيرت أجزاء المهمة من الصورة الكلية لم يستطع علم أصول الفقه الذي انفصم عن دراسات العقيدة –وهي الأساس الكلي والقيم للأمة وأنظمتها الاجتماعية– أن يواكب مسيرة التطور وأن يستجيب لحاجات العصور المختلفة ومتغيراتها، وأصبحت دراسة أصول الفقه تتم جنبا إلى جنب مع كتب الفقه التقليدية، لا على أساس أنها أداة منهجية حية تولد الأحكام وتعين على تطويرها. بل أصبحت دراسة الأصول دراسة تاريخية جامدة لا يؤمل لطالب من طلابها أن يقتدر بها على تطوير الأحكام وتوليدها، وفهم مستجدات الحياة والاستجابة لها.

لذلك يجب إعادة النظر في أسلوب دراسة الدين وأسلوبه، بعد تنقية دراسة الأصول من الإسرائيليات والشطحات والأساطير وأخذ عنصر المكان والزمان في الحسبان حسب مقتضى الحال، ليكون ذلك الأساس الذي ينبني عليه كيان المجتمع، مع الالتزام بقيمه ومقاصده، استجابة لحاجاته ومستجداته، وليكون الفقه والقانون معبرين عن أحكامه وضوابطه.

إن الدين وأصوله هما أساس الحركة ودليلها، ولا يمكن فصل الأنظمة والقواعد الاجتماعية، ثم دراستها في معزل عن الدين وقيمه ومقاصده. ولذلك يجب إعادة النظر في أسلوب دراسات العقيدة والأنظمة الاجتماعية بشكل متساند، وأن تدرك آثار هذه الدراسات والأفكار والمنهجيات في الأمة أفرادا وجماعات، تربويا واجتماعيا وقانونيا.

إعادة النظر في مجال كتاب الفقه الإسلامي

ليشمل ممارسات الأفراد وشؤون الجماعات ويكون دليلا لتربية المسلم فردا في الجماعة:

إن الفكر الديني الإسلامي، خاصة في تربية الصغار يجب أن ينبني على أساس الحب ومعانيه الإيجابية، ليكون حبا لله ولرسوله وللحياة والمجتمع "لا يؤمن أحدكم حتى سكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه."

يجب –خاصة في تربية الصغار– أن ينزع فتيل الخوف والإرهاب النفسي المدمر، وأن يستأصل فكر الاستعباد ومعانيه في استصغار النفس وفقدان الثقة بها، وانعدام روح المبادرة والشجاعة النفسية. إن العبودية في معناها الصحيح تعبيد لا استعباد، ودلالتها الإسلامية إنما تشتق من مصدر التعبيد ومعانيه القيمة الكريمة، لا من مصدر الاستعباد ومعانيه المنفرة السقيمة، أيمان المسلم، وطلبه بإرادته الحرة لما هو صحيح وحق، وتقبله ذلك، هو مثار اعتزاز وكرامة وثقة بالنفس.

إن كتاب الفقه الإسلامي يمثل –تاريخا وعمليا– دليل تربية الفرد المسلم، وهو يخاطب الإنسان بوصفه فردا. والمطلوب تعديل هذا الدليل ومد مساحته ليشمل الناحية الجماعية، حتى يمكن أن يصبح الإنسان المسلم فردا صالحا وعضوا صالحا في الجماعة والأمة الإسلامية. ويتحقق ذلك عندما يمتد الخطاب التربوي في كتاب الفقه إلى الجانب العام في السياسة والأنظمة والمؤسسات العامة لتكون جزءا من البناء النفسي للفرد المسلم. وحتى يتسنى للفقه الإسلامي أن يستعيد مكانته في باب المعاملات، أن يمتد إلى الجوانب السياسية والعامة في حياة الإنسان والأمة المسلمة، يجب أن تصبح منطلقات نظمه وتنظيماته صادرة عن كيان اجتماعي، وسياسات اجتماعية متكاملة متساندة في التربية والعمل، والتشريع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي،

وليس مجموعة من الأحكام النظرية المجردة والعقوبات الجنائية المنبتة عن كيانها الاجتماعي، تلك التي تخاطب الإنسان فردا مجردا عن الجانب الجماعي والواقعي.

إذا أرادت الأمة، ومعها مفكروها، أن تستعيد عافيتها، وتضمن مستقبلا لائقا لأجيال القادمة من أبنائها، فلابد من إعادة النظر في مناهجها التربوية وأسلوب فهمها للخطاب القرآني خاصة والديني عامة، وإعادة النظر في دليل هذه التربية –كتاب الفقه– بوعي، لينفتح بوعي على مختلف الحاجات والجوانب الاجتماعية، بحيث تتم الاستجابة لها إيجابيا، ولينشأ المسلم شجاع النفس، عزيز الجانب، صادقا وإيجابيا ومبدعا، يسعى إلى الخير والحق وهذه هي الأسس والصفات الحقيقية للإنسان الخليفة.

إن صفات الإمامة والخلافة في الأرض تقوم أصلا على الشجاعة النفسية للفرد الصالح العضو في الجماعة، أي الذي يتمثل في كيانه النفسي منذ نعومة أظفاره البعدين الفردي والجماعي. وهذا لا يكون إلا بفهم الأسس والوسائل النفسية التربوية المناسبة لغرس العقيدة الصالحة في نفس الطفل المسلم، فلا تكون مغلوطة أو خبط عشواء تنتج نماذج إنسانية مشوهة ممزقة، لا يتفق قولها مع فعلها، ولا تملك الدعاوى المنبتة عن أثارها ونتائجها.

إصلاح فلسفة التعليم ومناهجه

إن الانفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية (العلماء والسلاطين)، وما نجم عنه من ضمور في الفكر، وخلل في الممارسة قد أدى بالمسلمين بعد الغلبة الأجنبية العسكرية، إلى فتح أبواب التقليد الحضاري والغزو الثقافي، وتبني العلمانية سقوطا في التقليد الأعمى للأجنبي.

والحل هو في إصلاح مناهج الفكر والبحث، وإصلاح مناهج التربية والتعليم وتخصيصا المناهج الدراسية للعلوم الشرعية.

وإصلاح مناهج الفكر يكون بالتزام قيم الإسلام ومنطلقاته ومقاصده، مع الفهم العميق للظروف التاريخية والاجتماعية، والتفاعل الإيجابي مع المستجدات المختلفة، وإدراك المتغيرات، وتقديم البدائل المناسبة

للمشكلات المطروحة وذلك في إطار منهج شمولي وتحليلي، يستند إلى منطق نقدي إبداعي. ولابد لهذا النهج من أن يتوسل بأدوات البحث النوعية والكمية، وطرق الاستقراء والاستنباط بحسب القضية المطروحة للبحث والدراسة.

وإصلاح مناهج التربية يكون بالوعي بطبيعة الكيان النفسي والاجتماعي الإنساني، وخاصة الوعي بمراحل نمو الطفل وتطوره، بحيث يتم التعامل معه بما يناسب المرحلة التي يمر بها، والمقاصد التي يُسعى إلى تحقيقها. والمقصود في النهاية أن يصبح الفرد المسلم إنسانا شجاعا وايجابيا، يحمل رسالة الإسلام ومقاصده النبيلة من منطق العزم والحب والفهم والقناعة.

ويتم إصلاح مناهج التعليم بإصلاح مناهج التربية في المنزل قبل المدرسة، وفي الأسواق، ووسائل الترويح والترفيه، إلى جانب إصلاح مناهج الدراسة والتدريب، في إطار وحدة المعرفة ووحدة مصادرها في المنظور الإسلامي.

فالوحي هو الدليل الهادي والمثال المرشد، وهو الذي يحدد المقاصد المطلوبة والقيم الأساسية عبر الزمان والمكان، وفوق اعتبارات الزمان والمكان. وان البحث والنظر والتدبر في إطار ظروف الزمان والمكان والطبائع. هو القضية والموضوع والمادة التي تتفاعل في ضوء هدي معارف الوحي وقيمه ومقاصده، لتتجلى في فهم الواقع وتشكيله في الزمان والمكان.

فالدارس لا يصح أن يكون أحادي المعرفة أيا كانت دينيه أو إنسانية. إن كل دارس عليه أن يلم بأساسيات المعرفة الدينية، والمعرفة الإنسانية في عصره حتى يستطيع أن يقدم فكرا اجتهاديا يواكب العصر الذي يعيش فيه.

فدارس العلوم المدنية الإنسانية والتقنية لابد له، إلى جانب الثقافة العامة، من إلمام مناسب وجيد بمنطلقات معارف الوحي وقيمه ومقاصده الأساسية، كما أن دارسي العلوم الدينية لا بد لهم كذلك من إلمام مناسب جيد بالثقافة العامة في عصرهم مع إطلاع كاف على العلوم الإنسانية والتقنية، بحيث يكونون خبراء بطبيعة ذلك المجال، مدركين دلالات معارف الوحي في ذلك المجال في إطار معارف عصرهم وحاجاته.

وهذا اللون من التوحيد والدمج في المعرفة، ومناهج تحصيلها من شانه أن يؤدي إلى التساند والإبداع المعرفي والتواصل بين الدارسين خدمة للعلم والحياة.

ولكي نحقق ذلك كله يجب أن نصلح مناهج فكرنا، وطرق تربية أطفالنا، وأن نعيد وحدة دراساتنا الدينية والفكرية في مجالات العقيدة (أصول الدين). والشعائر والمعاملات (علم الفقه)، ودراساتنا المدنية والتقنية) بما تمثله من معرفة للفطرة الإنسانية، وما يلحقها من آثار بسبب التنظيم الإنساني الاجتماعي، كما يجب أن نعنى بالجانب الفردي والجانب الجماعي بما فيه الجانب السياسي للفرد المسلم لكي يصبح هذا الفرد قويا وقادرا ومبدعا ومتماسكا في شخصيته، ومتينا في تكوينه النفسي بوصفه فردا في جماعة.

إن نقطة البداية تكمن –كما أرى– في استعاب هذه المعني بأبعادها كافة وتوضيحها لمختلف شرائح الأمة، وخاصة الآباء ذلك أن حرص الآباء على مصالح أبنائهم يجعلهم يجتهدون قدر طاقتهم لتحقيق مصالح أبنائهم وتبني المناهج والوسائل التي تحقق لهم المنفعة والسعادة في الدارين.

وهذا الفهم وهذه القناعة يجب أن يجسدهما المفكرون والقيادات في شكل سياسيات وخطط واضحة محددة للإصلاح المنهجي، والتربوي والتعليمي. وإن إصلاح المدارس والمناهج الدينية والعناية بدراسات العقيدة، وفهم تأثيرها في البناء النفسي للفرد المسلم، هو نقطة البداية لإصلاح مناهج تعليم العلوم الإنسانية والتقنية التي يجب أن تبني قدرات المسلم ذي البناء النفسي المتين، والصفات الإسلامية الحضارية الايجابية.

وإنه من المفيد أيضا في هذه المرحلة أن يهتم المفكرون والعلماء اهتماما خاصا بالكتابة، في قضية وحدة أصول المعرفة في الرؤية الإسلامية، والتزام المنهجية العلمية، واستعادة قوة البناء النفسي لأبناء الأمة.

إنه من الأهمية العمل أيضا على تأليف الكتب العلمية الجامعية في الأصول من منطق وحدة المعرفة، لتحوي العقيدة والشعائر والمعاملات والأنظمة في ضوء مبادئ العقيدة ومقاصدها، على أساس من فهم الطبائع ودراسة الواقع بأبعاده الزمانية والمكانية، حتى يمكننا الاستجابة بنجاح لتحديات العصر ومتغيرات الحياة وتطور الامكانات. وأن هذه الأعمال على جانب كبير من الأهمية ترجو أن تحظى من المفكرين والعلماء بأهمية قصوى عاجلة في هذه المرحلة.

إن حصيلة كل ذلك هو صلاح الفرد والنظام الاجتماعي على هدي قيم الإسلام ومقاصده، ودفع الفرد في مجتمع حي إلى الفعالية والايجابية في سياق حياة هادفة، تسعى إلى تحقيق الذات بالعمل القاصد موضوعيا إلى النفع (العمل الصالح).

إن هذه المهام تحتاج، لكي تعصي ثمارها، إلى الشجاعة النفسية، وإمعان النظر وتعميق البحث، وإدامة التفكير وصراحة التعبير، والى تخطي سلبيات التاريخ وقوى الإرهاب النفسي التي تمنع العقل المسلم من النظر بشجاعة، ومواجهة كل الأسئلة للوصول إلى قناعات صحيحة وممارسات فعالة، وهذا ليس بالأمر الهين.

إن هذه الرؤية، أضعها أمام المفكرين والعلماء لتمحيصها، وأخذ المفيد منها والتوسع فيه، وترك ما جانبه الصواب منها، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا سبيل الرشاد.